عليّ زين العابدين الحُسَينيّ وأدبُ التَّراجِم

مُحاوَلةٌ للفَهْم

حسين محمّد بافقيه

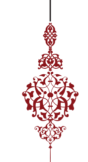
كاتِب وأديب سُعُوديّ



يَسْبِقُ إلى أوهامِنا أنَّ فنَّ التَّراجِم للأعلام والأساتذة ومَنْ إليهم = شأنٌ يَسِيرٌ، فإذا تَرَخَّصْنا عَدَدْناه مِنْ فُنُون التَّاريخ التي يستطيعُها العالِمُ والمتعلِّمُ، ولا يُكَلِّفُنا اقتحامُ سُبُلِها مَشَقَّةً ولا صُعُوبة، وليس دُونَ تقييد شيءٍ مِنْ سِيرة هذا العَلَمِ أوْ ذاك إلَّا أنْ نمتشِقَ اليَرَاع، ونَشْرَعَ في إثبات التَّراجِم، ونَبْلُغَ غايتَنا التي نُريد!

وهذا اللَّون مِنَ التَّفكير الذي يستهينُ بفنَّ التَّراجِم العامَّة = ليس هو مِنْ حديث العامَّة فتُلْتَمَسُ لهم الأعذار، لكنَّنا نلقَى شيئًا مِنْ ذلك عند خاصَّة المثقَّفين وجِلَّتهم؛ أولئك الذي نَعْتَدُّهم قادةَ الفِكْر في ثقافتنا العربيَّة الْحديثة، وعِندنا أنَّ كلامَهُمْ هو الكلام، ورأْيَهم هو الفيصلُ فيما يُتَنَازَعُ فيه، وظَنُّ هذه الطَّبَقة مِنَ المثقَّفين في كُتُب التَّراجم والطَّبَقات، ليس حَسَنًا في كُلِّ أحوالِه، ولا سِيَّما تلك التي اتَّصَلَتْ بتراجم العُلماء ومَن يرتفع إلى مَنازِلِهِمْ.

أرادَ الدُّكتور زكي نجيب محمود ﵀ أن يَدْرُسَ الفكرَ العربيَّ القديم، في صُعُودِه ونُزُولِه، أوْ في فَجْرِهِ وضُحَاهُ وظُهْرِه، ولا جَرَمَ أنَّه ليس لهذا الضَّرْبِ مِنَ الدِّراسة إلَّا مثقَّفٌ مِنْ طبقة فيلسوف الوضعيَّة المنطقيَّة، مَلَأَ حياتَنا فلسفةً، وفِكْرًا، وأدبًا، ونقدًا، وترجمةً، وكان، في كُلِّ طَوْرٍ مِنْ أطوارِه، ذلك الأستاذَ الْجليلَ، والمفكِّرَ الكبيرَ، والفيلسوفَ، والأديبَ، والنَّاقدَ، والمُتَرْجِمَ، والأستاذَ الْجامِعيّ = وما شِئْتَ مِنَ الأوصاف التي يَسُوقُها مُؤَلِّفُو كُتُب السِّيَر والتَّراجم والطَّبَقات، فما ظَنُّك بأستاذٍ اجتمعَتْ فيه هذه الألقاب، يستريحُ، قليلًا، في أوَّل شيخوختِه، مِنَ التَّفلسُفِ والتَّرجمة، ويلقَى في نَفْسِه رغبةً في تأمُّل تُراثٍ ضخمٍ كبيرٍ، بعد أنِ ارتوَى حتَّى تَضَلَّعَ مِنْ ثقافة الغرب وتُراثِه. لا شكَّ أنَّ ذلك منتهَى الطَّلَب!



وسأسوقُ إليك كلامًا هو كلامُه في المعنى، ولفْظي في الصِّياغة، يُصَوِّرُ فيه الفيلسوفُ الكبيرُ بُدَاءَةَ اتِّصالِه بهذا اللَّوْن مِنَ الدَّرْس، والْحَقُّ أنَّنا نَلْقَى في الصَّفحات التي كَسَرَها على ذلك، في أوَّل كِتابه **تجديد الفكر العربيّ** = ما يَرْقَى إلى أدبِ الاعترافاتِ الفِكْرِيَّة، يُمِيطُ اللِّثامَ عنْ مقدار معرفته بالتُّراث العربيّ الإسلاميّ القديم، في عُلُوم الدِّين، والعربيَّة وآدابها، والتَّاريخ، والبُلْدانيَّات، والفلسفة، والتَّصوُّف. أَلَيْسَتِ النِّيَّةُ أن يَدْرُسَ فِكْرَ هذه الأُمَّة وعَقْلَها؟ أَوَلَيْسَ الذي تَصَدَّى إلى هذا العمل الوَعْر فيلسوفًا؟ لكنَّ زكي نجيب محمود ما كَذَبَ قارئَه، وما رَفَعَ نَفْسَه فوق أنداده وأشباهه مِنَ المفكِّرين والمثقَّفين، وها هو ذا يُشَبِّهُ معرفته بذلك التُّراث الضَّخْم بالسَّائح الذي جَالَ، مُسْرِعًا، في مُتْحَفٍ، فعسى أن يُلِمَّ بشيءٍ مِنْ فنِّ بلادٍ هَبَطَها، وحضارتِها، وما عنده إلَّا ساعةٌ أوْ بعضُ ساعةٍ يَصْرِفُها إلى هذه الغاية! أوْ كأنَّه قارئٌ أَجْزَأَتْه صفحةٌ عنْ كِتاب، وجُزْءٌ مِنَ الْجمهرةِ عنْ سائر أجزائها، فإذا صاحِبُنا – وأعني زكي نجيب محمود – يَقرأُ عامَّةُ المثقَّفين وخاصَّتُهم طائفةً كبيرةً مِنْ كُتُبِه، وإذا هُمْ يُطالِعون فيها حديثَ الواثقِ المطمئنِّ الذي قولُه القَوْلُ الفصلُ، والحَكَمُ الذي تُرْضَى حُكُومتُه!

۞ لماذا أقول ذلك؟

لِنَقِفَ معًا على رأيٍ ساقَه المفكِّرُ الكبيرُ عن الْجَمْهَرات المُحِيطةِ التي كَسَرَها نَفَرٌ مِنْ أسلافِنا على تراجم العُلَماء وسِيَرِهم، فثَمَّ موضعُ النُّكتة أو اللَّطيفة!

قرأَ الدُّكتور زكي نجيب محمود مِقْدارًا مِنْ تراجم العُلَماء، وراعَهُ كلامٌ يَسُوقُه أهلُ العِلْم في هذا العالِم أوْ ذاك، والشُّيُوخِ الذين تَلْمَذَ لهم، والكُتُبِ



التي قرأَها، والتَّلامذةِ الذين أَخَذُوا عنه، والمؤلَّفاتِ التي وَضَعَها، على ما يعهدُهُ المتَّصِلُون بكُتُبِنا وتُراثِنا. فما الذي رآه؟

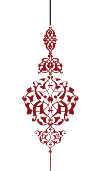
قال فيلسوف الوضعيَّة المنطقيَّة: إنَّ تلك الكُتُبَ التي كَسَرَها أصحابُها على التَّأريخ للعُلَماء والتَّرجمة لهم = لا جديدَ فيها! وكُلُّ ما انطوَتْ عليه لا يُحاوِلُ جديدًا، وإنَّما يَسْلُكُ الطَّريقَ نَفْسَه: أشياخٌ وأساتذةٌ، ورحلةٌ، وتلامذةٌ، وكُتُبٌ، ووَصْفٌ لهذا المترجَمِ أوْ ذاك بِـ "العالِم"! يُساقُ هذا الوَصْفُ بِثِقَةِ المطمئنِّ. وعَجِبَ صاحِبُنا حِينَ عَرَفَ أنَّ الوصْفَ بِـ "العالِم" لا يُرادُ به العِلْمُ الخالِصُ، كما هو الشَّأْنُ في الغرب "المتقدِّم"، وإنَّما يُرادُ به الدِّينُ وعُلُومُه، واللُّغةُ، والتَّاريخُ، والتَّصَوُّف! وليس ثَمَّ إلَّا كلامٌ مُزْجًى مكرورٌ، تلقاهُ في كُلِّ الكُتُبِ، بألفاظِهِ وعِبَاراتِه!

وعلينا أنْ نتذكَّرَ هيئةَ السَّائِح "المستعجِل"، و"المُتْحَف"، عندما نَظْهَرُ على كُتُبٍ أرادَ بها الفيلسوفُ، وأستاذُ المنطق ومناهج البحث، دِرَاسَةَ "الفِكْر العربيِّ" مَرَّةً واحِدَةً! أَجَلْ، مَرَّةً واحِدةً! ولا مَلامَةَ على "السَّائِح" إنِ اختطفَ القولَ خَطْفًا، لكنَّنا سنلُومُ الدُّكتور زكي نجيب محمود على أنْ قالَ في تُراثِنا، وتاريخنا، ودِيننا، وعُلُومِنا = قولًا، نَقْبَلُهُ - على مَضَضٍ - مِنَ "السَّائح"، لكنَّنا لا نقبلُه مِنَ "الفيلسوف"!

۞ لماذا سُقْتُ قِصَّةَ الدُّكتور زكي نجيب محمود؟

لأنَّ لها وشيجةً بكُتُبِ التَّراجم التي لَمْ يَعْرِفْها، ولَمْ يُحْسِنِ التَّهَدِّي إلى منهجِها، وكَلِمِها، ومُصطلَحِها، وعندئذٍ زَلَّتْ قَدَمُه وقال ما قال! وكان واجبًا على الأستاذ الْجامِعيّ المرموق أنْ لا يُلْقِي الكلام هَمَلًا، فيَضِلَّ ويُضِلَّ، وتَشِيعَ

قالَتُه في أهل العِلْم. والنَّاسُ، والقُرَّاءُ مِنْهم، يُحْسِنُون الظَّنَّ بالكاتب، فما ظَنُّكَ به إذا كان الكاتبُ فيلسوفًا؟!



وكُتُبُ التَّراجِم والسِّيَر لا تُعطي قارئَها ما يريد مِنْ أوَّل نظرة! إنَّها عزيزةٌ، مُتَمَنِّعةٌ، محجوبةٌ بطبقاتٍ مِّنَ المَعاني والأساليب، وما إنْ تَعْرِفُ مقصِدَها حتَّى تَرفعَها إلى العِلْم الذي اختصَّتْ به، لَوْ أُدِيرَتْ على أهل صناعةٍ مِنَ الصِّناعات، والبلدِ لوِ اختصَّتْ ببلدٍ أوْ ناحِيَةٍ، والقَرْنِ، ومِثالُه التَّراجمُ على القُرُون، والمذهبِ، والمَناقِبِ، والفهارسِ، والأثباتِ، والبرامجِ، والمَشْيَخات... إلى آخِرِ ما صُنِّفَ فيها.

وكُتُبُ التَّراجِم والسِّيَر - كما مَرَّ قبل قليل - لا تُعْطِي قارئَها كُلَّ شيء لوْ أقبلَ عليها إقبالَ "السَّائح" على الكُتُب المُصَوَّرة، وعساها تطلبُ قارئًا يَعْرِفُ رُمُوزَها، على أنَّ رُمُوزَها - أوْ مفاتيحَها - لا تتطلَّبُ شيئًا إلَّا أنْ تَكُونَ "قارئًا" واظَبَ عليها، وعَرَفَ مسالِكَها حَقَّ المعرفة، وإلَّا استبانَتْ له طائفةٌ مِنْها، وبخاصَّةٍ كُتُبُ فهارسِ الأشياخِ وبرامجِهم وأثباتِهم = كالألغازِ تستعصي على مَنْ لَمْ يَهْتَدِ إلى فَكِّ رُمُوزِها.

فالقارئُ الذي لا يَعْرِفُ معنًى لكُتُب الفهارس والبرامج يَتِيه في مسالكها ودُرُوبِها، وأغلبُ الظَّنِّ أنْ سيكونُ رأيُه فيها مُشْبِهًا رأيَ فيلسوف الوضعيَّة المنطقيَّة في كُتُب التَّراجِم! فإذا ذاقَ تلك الكُتُب عَرَفَها، والذَّوقُ، هُنا، ليس إلَّا الغاية، والمقصِد، والرُّمُوز، فإذا احتازَها لَذَّ له مَذَاقُها، ولانَتْ له وانقادَتْ، بعد نُفُورٍ واعتياص!

نُطَالِعُ، في أوَّل أمرِنا، كِتابَ **فِهْرِسَة ما رواه ابنُ خير الإشبيليّ عنْ شُيُوخِه** = فيتعاصَى علينا، ولا نَعْرِفُ غايةً للكُتُب التي رُفِعَتْ إلى هذا الشَّيخ أوْ ذاك! حتَّى



إذا أَلْمَمْنا، بعضَ الإلمام، بمنهج الدَّرْس والتَّلقِّي في ثقافتنا، وحتَّى إذا عَرَفْنا طبيعةَ كُتُبِ ما قبل الطِّباعة = لاحَ لنا شيءٌ مِنْ مَّعانيها، فإذا ارتقَيْنا، شيئًا مَّا عن المنزلة الأولى، رأيْنا في الكُتُب التي رواها ابنُ خير الإشبيليّ عنْ شُيُوخِه معنى "الشَّهادة العِلْميَّة" التي كَمْ تَعِبْنا في طِلابها، فإذا حُزْناها مِنَ المدرسة والمعهد والْجامِعة = مَنَحَتْنا تلك "الشَّهادةُ" اعترافًا بالأهليَّة العِلْمِيَّة!

لَمْ يختلِفِ ابنُ خير الإشبيليّ عنَّا - إلَّا بمقدار العِلْم الذي حَصَّلَه واجتهَدَ في طِلَابِه - فشُيُوخُه الذين تَلَقَّى عليهم العِلْمَ أَذِنُوا له بروايةِ تلك الكُتُب عنهم، على وَفْقِ شُرُوطٍ نلقاها في كُتُب أهل العِلْم، ثُمَّ إنَّ في سِلسلة الشُّيُوخ توثيقًا للتَّلقِّي وصِحَّة الكِتاب المَرْوِيِّ عنْ شيخٍ عنْ شيخ حتَّى نَبْلُغَ مؤلِّفَه، وعساك لَوْ أنعمتَ النَّظَرَ في مُقَدِّمات المحقِّقين الأفذاذ لكُتُب التُّراث = تَلقَى ما يُوشِكُ أن يَكُون وثيقةَ ميلادٍ للكِتاب، وشهادةً بالتَّلقِّي، وشجرةَ نَسَبٍ عِلْمِيٍّ ترتقي في الصُّعُود إلى المؤلِّف، وفي النُّزُول إلى قُرَّائه الذي أُجِيزُوا بروايتِه، في كلامٍ متشعِّبٍ حُلْوٍ لَّذيذٍ، نلقاه في تلك الكُتُب التي حَيَّرَتْ فيلسوفَ الوضعيَّة المنطقيَّة، فذَمَّ رَحِمَهُ الله عُلُومًا ما دَرَاها!

ويُعْجِبُني قولٌ رواه الدُّكتور رِضوان السَّيِّد عن العلَّامة الْجليل الدُّكتور إحسان عبَّاس رَحِمَهُ الله وعِندَه أنَّ كُتُبَ السِّيَر والتَّراجِم، في تُراثنا، إنَّما هي كُتُبٌ عن العِلْم، وإنَّ القارئَ الذي يُحْسِنُ تَدَبُّرَها يُدْرِكُ أنَّها كُتُبُ شُيُوخٍ، وتلاميذَ، وتَلَقٍّ، وسَمَاعٍ، ومؤلَّفاتٍ، وإجازات، وما قالَه العَلَّامةُ الْجليلُ ظاهِرٌ في كُتُبِنا، على أنَّ هذا اللَّوْنَ مِنَ الكُتُب قَلَّتِ العنايةُ به في العصر الْحديث، ومِمَّا يُؤسَفُ عليه أنَّه فاتَنا خيرٌ كثيرٌ، وذلك ثَمَرَةُ إهمالِنا وتقصيرِنا، ولنا أنْ نلتمِسَ الأعذارَ لرُجُوعِنا في تتميم ما بَدَأَهُ الأسلافُ؛ ونَرُدَّ شيئًا مِنْه إلى اختلاف أسلوب التَّلقِّي

في العصر الْحاضر عنه في العُصُور الْخوالي، على أنَّنا نُمْسِكُ بطَرَفٍ مِنْ كُتُب التَّراجِم، على ما عُهِدَ في تراثنا، لدى جَمَاعةٍ مِنَ المشتغلين بالْحديث النَّبَوِيِّ الشَّريف، ولا تزالُ كُتُبُ الفهارس والأشياخ والأثبات والمَشْيَخات والبرامج = تلقى مِنَ المشتغلين بهذه العُلُوم الشَّريفة عِنايةً طيِّبة، لكنَّ عِنايتِنا بكُتُب التَّراجِم العامَّة يعتريها مِنْ ألوان القُصُور حَدٌّ عظيم، وحسبُكَ أنَّنا لا نظفرُ، في كثيرٍ مِّنَ الأحيان، بترجمةٍ وافِيَةٍ لهذا العالِم أوْ ذلك الكاتب، ورُبَّما طَوَى النِّسْيانُ بجبروتِه أسماءَ نَفَرٍ مِنْ أهل العِلْم ملأوا الدُّنيا، وهُمْ أحياء، تصنيفًا وتحقيقًا، فلمَّا وافاهُمُ الأَجَلُ طُوِيَتْ عنَّا أخبارُهم، ولَمْ نَكَدْ نَعْرِفُ عنهم شيئًا.

أدركَ الدُّكتور عليّ زين العابدين الحُسَيْنيّ أنَّ الثَّقافةَ العربيَّةَ في العصر الْحاضر = لَمْ تَعْتَنِ بتراجِم الأدباءِ والعُلَماءِ والمؤلِّفين، وتَنطوي الفُصُولُ التي أذاعَها في الصُّحُفِ والمَجلَّاتِ على صُنُوفٍ مِنَ الألمِ والأسفِ لتقصيرنا في هذا اللَّوْن مِنَ التَّأليف. قال: إنَّ نَفَرًا مِنْ أساتذته وشُيُوخِه، أوْ مَنْ هُمْ في طَبَقَتهم = لا نكادُ نَعْرِفُ مِنْ نبَئِهم شيئًا، على اتِّصالِه بهم، وما كان أولئك الأساتذةُ والأشياخُ مِنْ أغمارِ النَّاس، فنُعْذَر، لكنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهم كان رأسًا في صَنْعته، يختلفُ إلى دُرُوسهم في المعهد والْجامِعة، ويَغْشَى مَنازِلَهم يلتمِسُ مِنْهم العِلْمَ والبَرَكة، فلمَّا طَوَاهُمُ الموتُ كأنَّما لَمْ يعيشوا يومًا واحدًا، فإذا أردْنا التَّعريفَ بهم لَمْ نَكَدْ نفوزُ إلَّا بطَرَفٍ يسيرٍ مِّنْ تراجِمِهم، وفي ذلك مِنَ الخُسْران ما فيه.

وكان مِمَّا سَمِعْتُه واستقرَّ في وجداني كلمةٌ صغيرةٌ طالما رَدَّدَها الأديبُ السُّعُوديّ محمَّد حسين زيدان رحمه الله تنطوي على مِقْدارٍ عظيمٍ مِنَ الألَمِ والْحَسْرة: "مجتمعُنا دَفَّان"! يقولُها بعِبَارةٍ فصيحةٍ لا تتنكَّرُ للعامِّيَّة، بلسانِهِ المَدَنِيِّ العَذْب، وأسلوبِه النَّادرِ في صَوْغِ العِبارات. يَقُولُها في المُحاضرات، وفي مجتمع الأدباء



والعُلَماء، وكأنَّ الشَّيْخَ المَدَنِيَّ كامرئِ القيس يبكي ويستبكي عزيزًا رَحَلَ، ويَسْتَفِزُّ ضمائرَنا بعِبارتِه القصيرةِ الْجامِعة، يشتدُّ على هذا المجتمع الذي سَرْعان ما ينسى، وكأنَّه لَمَّا دَفَنَ عالِمًا، أوْ أديبًا، أوْ وَجيهًا، يصيرُ القَبْرُ آخِرَ عهدِنا به، ثُمَّ ننساه ونُبالِغُ في نِسْيانِه!

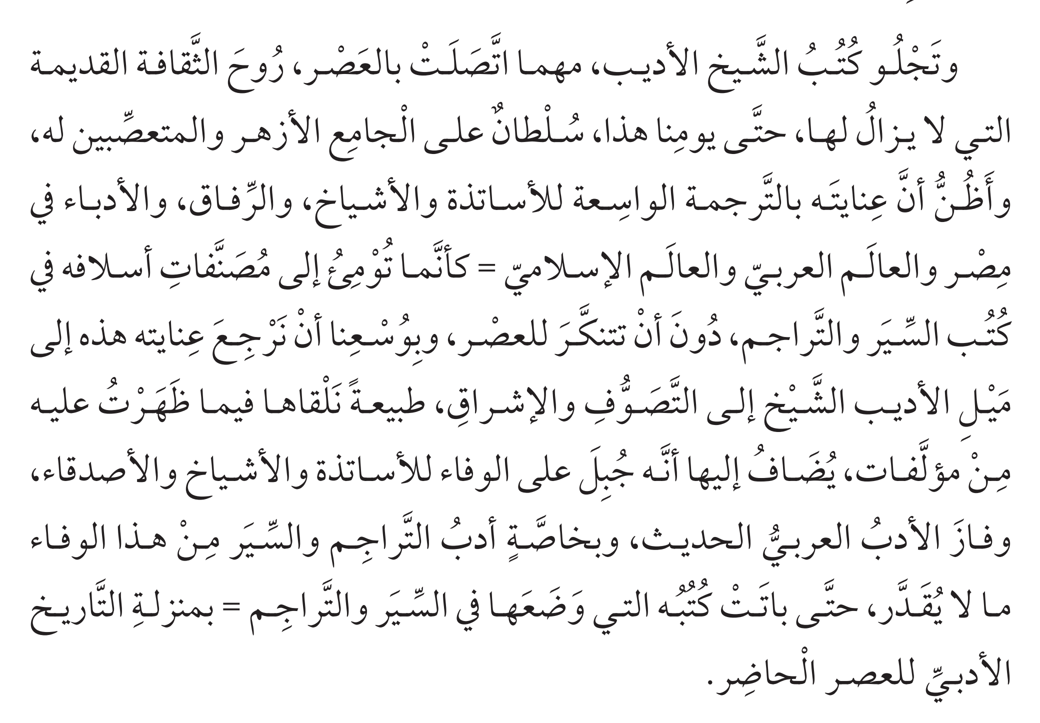
وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ الدُّكتور عليّ زين العابدين انتهَتْ إليه كلمةُ زيدان الباكِيَة المُبْكِيَة، فأرادَ أن يستنقِذَ أساتذةً وأشياخًا مِنَ النِّسْيان، فسَعَى إلى هذه الغاية الشَّريفة، وكأنَّ لسان حالِه "ما لا يُدْرَكُ كُلُّه لا يُتْرَكُ جُلُّه"، وما مِنْ مَّرَارةٍ تَفُوقُ العَجْزَ عنْ ترجمةِ عَلَمٍ مِنَ الأعلام، ولا زِلْتُ أذكُرُ أنَّني كابَدْتُّ ألوانًا مِنَ المَشاقِّ للظَّفَرِ بنُبْذةٍ، ولوْ كانتْ يسيرةً، عنْ مؤلِّفين اتَّصَلَتْ أسبابي بكُتُبِهم، لكنَّني لمْ أُوَفَّقْ إلى طَرَفٍ مِنْ تاريخهم، مَرَّ بي ذلك غيرَ مَرَّةٍ، وما نَفَعَنِي الاستنجادُ بالأبناءِ، والْحَفَدة، والأصدقاء، واجتهدْتُّ رأيي في تقييد ما انتهَى إليه عِلْمِي.

أَحَبَّ عليّ زين العابدين الحُسَينيّ تراجمَ العُلماءِ والأدباءِ والأساتذةِ والأشياخ، ولَقِيَ في قراءةِ هذا اللَّون مِنَ التَّآليفِ لَذَّةً ومَتاعًا، ثُمَّ علينا أنْ نَرُدَّ حُبَّه لكُتُبِ السِّيَرِ والتَّراجمِ إلى سببين لهما شأنٌ كبيرٌ في ثقافته = شَغَفُهُ بالتَّراجِمِ والسِّيَر، وتَلْمَذَتِه لأستاذِهِ وبَلَدِيِّهِ الدُّكتور محمَّد رجب البيُّوميّ ﵀ ومُؤَلَّفاتُه في أعلام العصر، مِمَّنْ عَرَفَ ولمْ يَعْرِفْ، مَزِيَّةٌ امتازَ بها في الأدب العربيِّ المعاصِر، وله في ذلك فلسفةٌ قمينةٌ بالإلماح إليها، أستطيعُ وَصْلَها بشخصيَّة هذا الأديب الأزهريّ الْجليل.

وأزهريَّةُ محمَّد رجب البيُّوميّ بعيدةُ الأثَرِ في عقلِه وقلبِه ووِجدانِه، منذ صِباهُ وفُتُوَّتِه وشبابِه، ولن يستخفيَ علينا مَيْلُه إلى نَمَطٍ مِنَ الثَّقافةِ باتَ غريبًا في



العصر الْحديث، عَرَفَهُ الْجامِعُ الأزهرُ ومَعاهِدُ العِلْم في كُلِّ العالَم الإسلاميّ، فلمَّا أَظَلَّنا العصرُ الحديثُ نَشِبَ الشِّقَاقُ بين نَمَطَين مِنَ الثَّقافة؛ نَمْطٍ تقليديٍّ قديمٍ أَخَذَ به الأزهرُ والأزهريُّون، وآخَرَ حديثٍ اصطنَعَتْه الْجامِعةُ المِصْريَّةُ الْحديثة، ولا يعنيني، فيما نحن بسبيلِه، أنْ أَخُوضَ في أسبابِ هذا الشِّقَاق، وكُلُّ ما أبتغيه أنَّ تلك الأزهريَّةَ التي طَبَعَتْ محمَّد رجب البيُّوميّ لَمْ تَحُلْ دُونَ أن يَكُون أديبًا عَصْرِيًّا، لكنْ على غير ما يصطنعُه دُعاةُ العَصْرِيَّة، في زمنٍ قديمٍ، والمنتحِلِين للأفكار الغربيَّة، في زمنٍ آخَرَ أدركَه الشَّيْخُ الأزهريُّ واتَّقاهُ دُونَ أن يُخاصِمَه.



وتَجْلُو كُتُبُ الشَّيخ الأديب، مهما اتَّصَلَتْ بالعَصْر، رُوحَ الثَّقافة القديمة التي لا يزالُ لها، حتَّى يومِنا هذا، سُلْطانٌ على الْجامِع الأزهر والمتعصِّبين له، وأَظُنُّ أنَّ عِنايتَه بالتَّرجمة الواسِعة للأساتذة والأشياخ، والرِّفاق، والأدباء في مِصْر والعالَم العربيّ والعالَم الإسلاميّ = كأنَّما تُوْمِئُ إلى مُصَنَّفاتِ أسلافه في كُتُب السِّيَر والتَّراجم، دُونَ أنْ تتنكَّرَ للعصْر، وبِوُسْعِنا أنْ نَرْجِعَ عِنايته هذه إلى مَيْلِ الأديب الشَّيْخ إلى التَّصَوُّفِ والإشراقِ، طبيعةً نَلْقاها فيما ظَهَرْتُ عليه مِنْ مؤلَّفات، يُضَافُ إليها أنَّه جُبِلَ على الوفاء للأساتذة والأشياخ والأصدقاء، وفازَ الأدبُ العربيُّ الحديث، وبخاصَّةٍ أدبُ التَّراجِم والسِّيَر مِنْ هذا الوفاء ما لا يُقَدَّر، حتَّى باتَتْ كُتُبُه التي وَضَعَها في السِّيَر والتَّراجِم = بمنزلةِ التَّاريخ الأدبيِّ للعصر الْحاضِر.

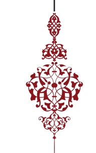
وفي الدُّكتور عليّ زين العابدين الحُسَيْنيّ ما في شيخِهِ محمَّد رجب البيُّوميّ؛ عُنِيَ الشَّيْخُ بالتَّرجمة للأساتذة والأشياخ والأدباء، وعُنِيَ التِّلميذُ بها، وانطَوَى رُوحُ الأستاذ على لَوْنٍ حُلْوٍ مِنَ الإسماح، واستعْلَنَ في الكُتُب التي

وَضَعَها والفُصُول التي أنشأَها = وكذلك التِّلميذُ الوَفِيُّ، وإنَّنا لَنَجِدُ هذا الخُلُقَ السَّمْحَ فيما أنشأَ عليّ زين العابدين وكَتَب، ونستطيعُ أنْ نَعْتَدَّ عَلِيًّا وريث عِلْم الشَّيْخ ورأسًا في مذهبٍ ليس كثيرًا أنْ نَدْعُوَه "الْبَيُّومِيَّة"! يمتازُ أتباعُهُ بالإسماحِ، كشيخِهِمْ، والأدبِ الْجَمِّ الذي يرتفعُ إلى مرتبة الإسراف = في مُحَاوَرةِ الْخُصُوم، وإنَّكَ لتُكَلِّفُ نَفْسَكَ مستحيلًا لوْ طَلَبْتَ مِنَ "البَيُّومِيِّين" لُغَةً غيرَ اللُّغة العَذْبةِ الحُلْوَة، وهُمْ، مهما دُعُوا أُدباءَ، يُشْبِهُ أن يَكُونوا رِفاقًا في "طريقةٍ صُوفيَّةٍ" تُوَقِّرُ الشَّيخَ، وتُقَيِّدُ شمائلَه، ولا تَحِيدُ عنْ منهجِه.

وسأقُصُّ عليكَ شيئًا مِنْ صِلَتي بالدُّكتور عليّ زين العابدين الحُسَيْنيّ، وكيفَ تُصَوِّرُه واعِيَتي!

وعَلِيٌّ، عندي، ليس "جارِحًا كالصُّقُور"! وإنَّكَ لتطْلُبُ ما لا يُتَصَوَّرُ لوْ أردْتَّه على غير ما أرادَ؛ أن يَكُون سَمْحًا في طبيعتِه، لَيِّنَ العِبَارة، مهما خُولِفَ، ليس في لُغتِه كلمةٌ جافِيَةٌ، وكان يحلو لي أنْ أُقابِلَ منهجَهُ اللَّيِّنَ هذا بجَماعةٍ بَلَغَتْ في التَّعَصُّبِ للعَلَّامة الْجليل محمود محمَّد شاكر ﷺ = مرتبةَ الغُلُوّ! وهُمْ، إنْ فاتَهُمْ أن يَنْشُرُوا عِلْمَ الشَّيْخِ ومنهجَه في التَّذَوُّق = فما فاتَهُمْ التَّطَبُّعُ بخُشُونةِ عِبارتِه، وعُنْفِ ألفاظِه متى خالَفَ أوْ خُولِفَ! والْحَقُّ أنَّ "الشَّاكِرِيِّين" - وهذا اسْمُهُمْ - لمْ يُحْسِنُوا الانتفاعَ بتُراث شيخِهم، وإنَّهم، على استطالَتِهِمْ على المُخالِفين، غيرُ قادرين على اصطناعِ منهجِه في تَذَوُّقِ البيان، وصَرَفُوا طاقاتِهِمْ في النَّيْلِ مِنْ خُصُومِهم - لا خُصُوم الشَّيخ! - وكُلٌّ بِضاعتِهِمْ أن يبدأوا القولَ ويُعِيدُوه في تصويرِ الحياةِ الأدبيَّةِ قاتِمةً مُعْوَجَّةً، وخُصُومِهم مُنْحرِفين عن الْجادَّة!

أنزلَ عليّ زين العابدين شَيخَهُ منزلةَ "الإمام"، بلْ إنَّه لَيُلَقِّبُه بهذا اللَّقَب! ووَرِثَ عنه عِلْمَه ومنهجَه، وتأدَّبَ بأدبِهِ؛ أدبِ الكلمةِ، وأدبِ النَّفْس، وكان مِمَّا أَخَذَه مِنْه العِنايةُ بالتَّرجمةِ للأساتذة والأشياخ.



ولا ضَيْرَ في أن يرعَى التِّلميذُ تُراثَ أستاذه، ولا بأْسَ في أن يُنَمِّيَ منهجَه في العِلْم وأسلوبَه في الكتابة. وإنْ صَحَّ أنْ نُصَنِّفَ عَلِيًّا في "البيُّوميِّين"، فله في مِصْرَ أسلافٌ رَعَوْا تُرَاثَ أشياخِهِم وأساتذتِهم، وأتَمُّوا رسالتَهم، أشهرُهُمْ تلامذةُ الشَّيخ أمين الخوليّ وأتباعُه الذين انضَوَوْا في "جَمَاعة الأُمناء".

ومِمَّا وَرِثَه عليٌّ عنْ شيخِهِ محمَّد رجب البيُّوميّ العنايةُ بفَنِّ السِّيَر والتَّراجِم؛ سِيَرِ الأساتذة والأشياخ والأصحاب والأحباب، وعلينا أنْ نَعْرِفَ في عليٍّ زين العابدين الحُسَينيّ مِثالًا لثقافةٍ غابَتْ، منذ اختلفَ التَّعليمُ في العصر الْحديث، فإذا هو لونان أُرِيدَ لهما أن يغدُوَا متناقضين؛ التَّعليم الدِّينيّ في الْجامِع الأزهر ومَعاهدِه، والتَّعليم المدنيّ في الْجامِعة المصريَّة والتَّعليم العامّ، لكنَّ ذلك لا ينفي عنْ عليٍّ نُزُولَه على شَرْط العصر وثقافته، مهما حَرِصَ على إحياءِ ضُرُوبٍ مِنْ ثقافة أسلافِهِ في الْجامِع الأزهر، وغارَتْ تلك الثَّقافة في عقلِهِ ووجدانِهِ، وسَعَى إلى تصويرِها في نَفْسِه، وتَتَبُّع مُمَثِّليها في أساتذتِه وأشياخه، ورُبَّما رأى المثقَّفُ الْحديثُ في أَخْذِ عليٍّ بأساليب التَّلَقِّي عند أسلافِنا خُرُوجًا على العصر، بلْ عساه لمْ يَفْقَهْ حِرْصَه على استمرارِها، فأنشأَ يُتَرْجِمُ للْجِلَّةِ مِنْ أشياخِه على وَفْقِ منهجِ السَّلَفِ في كُتُبِ الفهارس والأثبات والمَشْيَخات والبرامج، يَدْفَعُه إليها اتِّصالُه بحركة العِلْم الإسلاميِّ الممتدَّةِ في الزَّمان والمكان، ورَفْعُ نَسَبِه العِلْميِّ إلى أولئك الأسلاف، لعلَّه ينتفِعُ بِبَرَكَةِ أشياخِهم وفضلِ دُعائهم، وليس فيما فَعَلَه عليٌّ بِدْعٌ مِنَ الأمر؛ فللتَّلَقِّي عن الأشياخ



صُوَرٌ مختلفات، مِنْهُنَّ البَرَكةُ والدُّعاء، فـ"السَّمَاعُ رِزْقٌ"، وكيف لعَصْرِيٍّ مِثْلِه تَعَلَّقَ بثقافةِ قومِهِ وتُراثِهم، أن يُفَرِّطَ في رِزْقٍ سِيقَ إليه!

وأنا أُرِيدُكَ أنْ لا تستنكِرَ الثَّقافةَ التي أرادَ عليٌّ زين العابدين استنقاذَها وتَصويرَها، وأنَّها تُبَايِنُ عصرَنا هذا وثقافتَه، والذي أظُنُّه أنَّ تلقِّي العِلْم عن الأشياخ لا يَحُولُ دُونَ الثَّقافة الحديثة، وما كان عليٌّ وما كان شيخُه محمَّد رجب البيُّوميّ، مِنْ قَبْلِهِ، مُنْبَتَّيْنِ عن العصر وثقافتِه، لكنَّهما أدركا أنَّ تلك الثَّقافةَ القديمةَ لا ينبغي لنا أنْ نُفَرِّطَ فيها، مهما أصبْنا مِنَ التَّعليم الْحديث، ثُمَّ ما الضَّيْرُ في أنْ نَخْلِطَ ثقافةً قديمةً في ثقافةٍ حديثةٍ، وهلْ يستطيعُ طالبُ العُلُوم العربيَّة والإسلاميَّة أن يَبُتَّ علائقَه بتلك الألوان الطَّريفة في تراثِنا، ولسْتُ أشكُّ في أنَّ تعليمَنا الْجامِعيَّ الْحديثَ لَحِقَهُ الضَّيْم حِينَ صِيغَ على صُورةِ الْجامِعات الْحديثة في الغرب، وإلَّا فأيُّ معنًى نلقاهُ في طالبِ العُلُوم العربيَّة إنْ حِيلَ ما بينه وبين المُتُون والْحواشي؟ وهلْ مِنْ نَفْعٍ يرجوه، وهو لا يَعْرِفُ مِنْ تراثِهِ إلَّا الشَّيءَ اليسير؟

وسأُطْلِعُكَ على شُعُورٍ يتجَدَّدُ كُلَّما ظَهَرْتُ على خبيئةٍ اختصَّ بها عليّ زين العابدين الْحَسَيْنِيّ شيخًا مِنْ شُيُوخِه؛ ذلك أنَّه أذْكَرَني أسلوبَ أستاذي الدُّكتور عاصم حمدان عليّ الغامديّ المَدَنِيّ ﵀ في الْحديثِ عنْ أشياخِه، وأحبابِه، والْحياةِ القديمةِ التي أدركَها في المدينة النَّبويَّة المنوَّرة ومكَّة المكرَّمة، وأُناسُ عاصم وعَلِيٍّ ليسوا كأُناسِ صلاح عبد الصَّبور "جارِحين كالصُّقُور"! لا، إنَّهم أرضيُّون سماويُّون، تُطالِعُ سِيَرَهُم فلا تَشُكُّ في أنَّك إنَّما تُطالِعُ كِتابًا قديمًا مِنْ كُتُبِ المَنَاقِبِ، وعندي أنَّه ليس في ذلك مأخذٌ، بلْ عساهُما نَزَلا على طبيعةٍ أصيلةٍ تُنْزِلُ التَّصوُّفَ السَّمْحَ منزلةً كُبْرَى في حياتِهما، وأُقَدِّرُ أنَّهما

لا يستطيعان، مهما أرادا، أن يُخالِفا عنْ منهجِهما، سَجِيَّةً فيهما نُشِّئا عليها، وأَخَذَهُمُ الأشياخُ إليها، تربيةً وتأدُّبًا، وإنَّنا لنْ نَفْهَمَ دَوَرَانَ قَدْرٍ كبيرٍ مِمَّا يكتبُه عليٌّ عنْ أستاذه وشيخِه محمَّد رجب البيُّوميّ، لولا هذا الْحَبْلُ السُّرِّيُّ الذي رَبَطَ التِّلميذَ بالأستاذ، والمُرِيدَ بالشَّيخ، فإذا قَرأْتَ عند عاصم حمدان وعليّ زين العابدين الحُسَيْنيّ ما تَظُنُّه غُلُوًّا أوْ إسرافًا = فذلك أنَّكَ حَكَمْتَ عليهما بما لا يُوَافِقُ المنهجَ الذي اختطَّاهُ وأراداه، ولولا هذا الرُّوحُ السَّمْحُ، ولولا التَّقَرُّبُ إلى الله ﷻ بمَحَبَّةِ الأولياءِ والصَّالحين، لآثَرَ عاصمٌ وعَلِيٌّ السُّكُوت! ولَخَسِرْنا لونًا حبيبًا قريبًا في أدبِ المَناقِب، أَجَمَتْه الثَّقافةُ الْحديثةُ، وبالغَتْ في التَّشنيع عليه!

حسين محمد بافقيه

جُدَّة – ضاحِيَة أبْحُر الشَّماليَّة

في ٢٠ مِنْ شهر ذي القعدة سنة ١٤٤٤هـ